# موسيقى الممر الخلفي

تفحص علي يديه بنظرة طويلة وانتبه إلى أن أظافره متسخة، فطلب من محمـود منديلًا. من يهتم بأظافر صبي مكواة؟ من يراه؟ لكن أظافر صبي المكواة، بحسب ما قال علي، أهم من المكواة نفسها.

حينها، رفع محمود أظافره لأعلى بمحاذاة عينيه، وردد سـاخرًا عبارة علي عن أهمية أظافر الصبي، فتجاهله الصبي ومال للأمام ليربط حذاءه، فوجده مربوطًا، فعدل من وقفته مرة أخرى. نظر بتمعن في زجاج سيارة مجاورة ليتأكد من هيئته النظيفة وشعره الممشوط. كان أمر أظافره يلح عليه ويفسـد كل الترتيبات. حين لم يجد من محمود أي انتباه، انسـحب غاضبا وهو يفرك أظافره داخل كفه. بينما ضحك صاحبه ضحكة مكتومة وجلس على الرصيف.

لاح الأمل أمامهما في ذلك النهار. لم يكن محمود يتخيل أن أي أمل قد يلوح في قيظ كهذا. عرقه غزير، سال فوق جبينه وألهب عينيه.

كان الشارع خاليا إلا من بعض المارة، حتى أن قطط الشوارع وكلابها كانت مختبئة تحت السيارات الساخنة.

فـرك محمود نصف سـيجارة احتفـظ بها منذ الليلـة الفائتة، ثم عدل جلسته سـاندا ظهره إلى مقدمة إحدى السيارات في قبالة مدخل العمارة، حيث يكون في وضع اسـتعداد للجري في أي وقت إذا لمح علي يجري من مدخل العمارة، أو سمع صوته يصرخ.

نظر إليه وهو يبتعد، كان علي طويلًا بظهر منحنٍ للأمام، يرتدي قميصا بيج نظيفًا، غسـله محمود خصيصا من أجله وعطره بماء الورد بعد سرقته من غرفة جده. أكثر ما انتبه إليه محمود هو قفاه، كان كهلا عريضا انحنى تحت ثقل رأسه الكبير الذي يكاد يسقط منه إذا لم ينتبه. كان يمشي عكس أشعة الشمس التي تكسرت على هيئته، وتموجت جزيئات الهواء من حوله. بدا كأنه يسير في قلب زمن آخر.

تململ علي قليلًا قبل الصعود. عليه أن يقوم بمهمته بسرعة واحترافية كأنه وُلِد ليقوم بها في كل يوم من عمره. يطرق الباب ويسـأل السـؤال في خفة دون الإمعان في النظر، ثم يرحل سريعًا سـواء أخذ ما جاء من أجله أم لا. اختار محمود هذه البناية لأنها بلا حارس منذ عدة أيام. بجانبها بناية أخرى مشـتركة معها في السـلالم الخلفية، بذلك يمكنه التسلل إليها دون المرور على مدخلها.

هو الآن صبي الكواء، عليه تصديق ذلك. لطالما تساءل عمن يكون، لذلك يحب السينما ويتقمص الأدوار ويحفظ المشاهد ويعيد الحوار على آذان من حوله. ربما كان يقول لنفسه: أنا الآن صبي الكواء، ألوح من حرارة المكواة، من وراء المناضد العالية والمشاجب البلاستكية الرخيصة الملونة. أرسم بقطعة حديد ساخنة خطوطا متوازية ملساء، وأهذب الثنيات. أنا الحاضر الغائب في نزهاتهم واجتماعاتهم وأفراحهم وجنائزهم. أقف دوما في الظلام بينما هم في دائرة الضوء.

ردد جملته عدة مرات وهو في طريقه للطابق الأول، ككومبارس أصبح لديه جملة طويلة أخيرا على خشبة مسرح. طرق الباب الأول ببطء وأظافره مغروسة بلحم كفه. طلت فتاة برأسها بسؤال متعلق بعينيها:

- نعم؟

فردّ بصوت مبحوح حاول أن يبدو طبيعيا:

- مكوى؟

واربت الباب وغابت دهرًا كاملًا ثم عادت ببعض الملابس المكرمشة. وضعتها في يده بعنف وأغلقت الباب. فتش بها على عجل، لكنه لم يجد ما يستحق التوقف لأجله. فتوجه للباب الثاني، بخطوات أكثر خفة. تكرر المشهد الأول وأُغلق الباب وبيده بعض الملابس. بدأ يحب اللعبة بعد الباب

الثالث، ولم يعد يفتش فيما بين يده، ونسي أمر أظافره القذرة.

أصبحت خطواته أكثر اتساعًا، خطوات رشيقة راقصة، حتى إنه التفّ حول نفسه عدة مرات عند بداية الدرج للطابق الأعلى. تذكر دومينيك(*) في نشوته وعبوره الشارع بينما نودلز يعزف في الخلفية موسيقى هادئة. لا بد أنه كان سعيدا جدا في تلك اللحظة، أكثر سعادة منه هو الذي يسير في طرقات ضيقة تأكلها الرطوبة وتلعب في أنحائها القطط الجرباء والفئران. كان لهذا الشعور وقع غريب على نفسه، لم يسبق له الشعور بالفرح هكذا. صوّر له الوهم أنه فاض سرورا، لكن هنا بين الدهاليز المتعفنة وهو يسرق، لا يعدو كونه "حرامي غسيل". هنا توقف ورأى أمامه مشهد قتل دومينيك وردد جملته الحزينة بنفس البطء:

– نولدز، لقد انزلقت.

حين نزل لـ محمود، كانت كومة ملابس بيده، وأفكار الموت برأسه قد سيطرت عليه. أشار له بأن يسرع وتوجها لشارع جانبي. نظر لـ محمود وقال:

– "أحيانا عندما أقود السيارة، على الطريق ليلا، أرى ضوء فانوسي سيارة يتجهان نحوي. يدفعني شعور مفاجئ لأن أدير المقود بسرعة واتجه

(*) دومينيك: المشهد من فيلم once upon a time in America

لأصطدم بالسيارة القادمة. أستطيع توقع الانفجار(*)...

قاطعه محمود بلهجة درامية:

– أحسن حاجة في الفيلم الأخير إنه كان أكشن، مليان دم وعنف، وأهو الحمد لله خلّصك من برودك.

– أنا جاد فعلا في فكرة الانتحار، انت ما فكرتش في دا قبل كده؟

– الرجالة ما بتنتحرش، وبعدين هنتحر ليه؟ مافيش أجمل من الفرجة على فيلم، مرة بطله ينتحر ومرة بطله شاب رومانسي بيشتغل في المكوى وبيسرق الهدوم، وفي الآخر يموت فأي حارة.

سارا متجاورين في صمت. يوجهه محمود بعناية. قطعا الشارع التجاري الواسع، وتوجها لمتجر ملابس صغير. دخل محمود بمفرده ليتفاوض بشأن السعر، بالكاد يسمعه علي يجادل ويحسن التفاوض، يعلو صوته وينخفض حسب المبلغ المطروح. كان الظلام بدأ يخيّم على المكان، وبدأت حركة الشارع تزيد. كان علي مغمورًا بهدوء كالذي يسود بعد بداية العرض في صالة السينما.

توجه لمقهى مجاور، انتظارا لانتهاء المفاوضات، ورأسه يثقل أكثر فوق كاهله العريض. عاد محمود وكان مزموم الشفتين. عرف أنه لم ينجح هذه

(*) العبارة من فيلم Annie Hall

المرة، ودّ لو يقول لا تبتئس، فالبؤساء هم الآخرون جميعًا (*) لكنه لن يضمن رد فعله، فصمت. عرف إنهما سيكرران ما فعلاه مرة أخرى، لم يكترث. قلبّ شفتيه وطلب شايا خفيفا بالنعناع.

حدد محمود البناية الثانية، وقال لـ علي عليك أن تكون أسرع هذه المرة، دعنا ننتهي مبكرا. مال علي ليربط رباط حذائه، بقى قليلا في الأسفل ثم عاد إلى وضعه، وهز رأسه متفهما.

في البناية الثانية، كانت خطواته أسرع وطرقه على الأبواب أخف. كان يخشى صبي المكواة الحقيقي، لكنه اطمأن قليلا حين نهره عجوز لأنه لم يعد يمر كثيرًا كالسابق. يسير بحذائه في خطوط مستقيمة، موازيًا للجدار ومتجنبًا النظر للمناور لأنه يخشى الفئران.

طرق الباب الثاني في الطابق السادس بتململ، ونوى أن يكون الطابق الأخير. كانت كومة الملابس بيده تعسفه. أسند ظهره على الجدار المقابل متجاهلا رغبة ملحة في إشعال سيجارة. كاد يبتعد حينما تأخر أصحاب الشقة في الرد، لكنه طرق الباب مرة أخرى إمعانا في التأكد.

فتح طفل صغير، نظر إليه بعين كبيرة منتفخة ثم جري من أمامه في الممر الطويل واختفى في المنحنى. ظل واقفا لثوان، ثم فتح الباب بأطراف

(*) العبارة من فيلم Annie Hall

أصابعه. موسـيقى هادئة تتسـلل من وراء الممر، استمع إليها بملء أذنيه كعطشان. كانت كفاصل رقيق بين ما مر من حياته وما سيأتي. تبعها وخطا ببطء في الممر، كان الحائط غامقًا، أملس وباردًا، فكر أنه مغلف بالرخام. لم يسـتطع الرؤية ليتأكد، كانت فكرة لصق أحجار رخام ضخمة بحائط مزعجة بالنسبة له. الموسيقى خلفية غير ملائمة لمشهد تقطيع الرخام ولصقه متجاورًا في ممر شـقة بالدور السادس. لم يستطع تخيل المشهد كاملا، كأنما ارتبطت نهايته بنهايـة الممر الرخامي، لكنه خطا خطوات كثيرة ولم يصل بعد. لا يعلو صوت الموسـيقى كلما خطا، لا تقترب ولا تبتعد، نغمات لها وقع ثابت.

ظهر الطفل أمامه مرة أخرى، باكيًا نصف عارٍ، وبعد أن حدّق فيه من آخر الممر، أشار إليه أن يتبعه. انكمش الممر ليجد علي نفسه على حافته، أمامه ردهة صغيرة، يتوسطها سجادة حمراء هزيلة، لم تفلح المساحيق والفرشاة الخشـنة في إزالة البقع الغامقة منها، ومع ذلك بـدت نظيفة والبقع بدت كشـامات الحسـن، صغيرة ومتناثرة. على كرسي بمسند، كان هناك رجل جالس بملابس داخلية بيضاء أمامه تليفزيون صغير، تصدر منه الموسيقى. بشاشة التليفزيون شرخ وشريط أسود عريض، يدور فيها من أعلى لأسفل ببطء. تجشـأ الرجل محدقـا بالتليفزيون، لم يبد أي دهشـة من دخول علي المفاجـئ. ركض الطفل أمامه وبيده كرة صغيرة يقذفها لأعلى مرارا حتى

ارتطمت بالشاشة الصغيرة فزداد الشرخ. مذهولا، استقبل لطمة الرجل على ظهره وتبعتها عدة لطمات على صدغه وذراعه الذي حاول حماية نفسه به. أسرعت سيدة صغيرة من الداخل لتنقذه مولولة. وفستان بنفسجي طويل لم يفلح في تغطية نهديها بالكامل يتثنى مع حركات جسدها السريعة. انتشلت الطفل من يديه وحملته متوعدة له بكل ما استطاعت من القول. لم يتركها الرجل، قام خلفها بجسد هزيل غاضب. أزاح الطفل من حضنها وألقى به أرضا.

تابع علي المشهد الذي أصبح إيقاعه بطيئًا، كان الفستان البنفسجي يخطف نظره. ألحت فكرة في عقله بأن هذا المشهد رآه من قبل. ألقى بها الرجل على الأرض، وذراعاها أمامها في محاولة استجداء. امتطاها بتلكؤ، ويداه تعبثان أسفل فستانها وترفعه. الطفل يبكي في ركن الحجرة على طرف السجادة، فيما يلج الرجل عضوه بداخلها، وفيما ينهج علي وينظر للفستان المرفوع ويغطى ذيله نهديها ووجهها. لم تطغ الصرخة على صوت الموسيقى أبدا ولا على صوت نحيب الطفل.

انتهى منها. ووقف وقدماه ترتعشان أسفله بينما ضمت هي قدميها، والفستان الممزق فوق خصرها. قال علي أخيرا: "لا"، لكن صوته لم يخرج، وبدت الشقة صغيرة جدا. سمع الباب يصفق بقوة خلفه، وأدرك أنه غير مرئي هنا. كان شعور الخذلان يطفو في عقله، لقد خذل نفسه بعبوره الممر،

بأن سمح لرجل بعضو كعود كبريت أن يهينه بهذا الشكل، باستسلام المرأة المهين وفستانها الفاضح وفرجها الأبيض النظيف. لم يصدق أنها مغتصبة، قال لنفسه لقد رأيت شبح ابتسامة بين صرخاتها. لكنه تعاطف مع الطفل، مع ندبات زرقاء على فكه ورقبته، مع ظهره المحني قليلا للأمام يكاد يقع من ثقل رأسه.

لمح طرف الفستان البنفسجي على ذراعه. لم تسعفه ذاكرته، فلم يعرف من أي شقة حصل عليه. مال للأمام نحو الطفل، ربت على رأسه ثم حمله ولف جسده بالفستان البنفسجي. كثيرا ما كان يتساءل عن شعور من يحمل طفلا صغيرا بين ذراعيه، أسنده إلى كتفه وسار به نحو الممر. قال له(*):

- تعرف اللحن اللي كان خارج من التليفزيون؟

- التليفزيون عطلان.

- واللحن جي منين؟

- مني، أنا الـ بدندنه.

- انت تعرف قصة اللحن دا إيه؟

هز رأسه نفيا، فتابع علي كلامه:

(*) العبارة منقولة بتصرف من فيلم Eternity and a Day

– هحكـي لـك قصتـه بعديـن، أو ممكن نتفـرج على فيلـم يحكي لنا القصة.

ثم ابتلعهما الممر الرخامي.